شهيد المروءة وشهيد الغرام

سيدتي بالباب فتى من الكتاب
يلتمس المثولا لديك والقبولا
وهو قليل الفضل علماً كثير الجهل
ادنى الى السحاب منه الى الاداب
ابرع بالعلوم من عالم مرسوم
يعثر بالالفاظ كالاعرج المغتاظ
ويصبغ المعاني باسمج الالوان
وينظم القريضا مشوهاً مريضا
لكن من حلمك لي عوناً لنيل مأملي
ومنتهى ما اطلب ان تقراي ما اكتب
فان تشأي محسنه وتأذني مستحسنه
اقصص على قرائه نشرتك الغراء
بالشعر او بالنثر ايهما لا ادري
حادثة غريبه ما هي بالمكذوبه
وصفتها تمثيلا كما جرت تفصيلا
في قرية صغيره شهرتها كبيره
تعرف في لبنان بقرية الشجعان
وذاك ان ذيبا مستضخماً مهيبا
طرقها اصيلا يبغي بها مقيلا
فخرج الرجال اليه والاطفال
في هرج ومرج ولجب ممتزج
اتاهم الانباء مباغتاً فجاؤوا
عزلاً بلا سلاح يرجي سوى الصياح
ووقفوا بعيدا ينفرون السيدا
وانتظموا هلالا ليقفلوا المجالا
فامتنع الدخول عليه والسبيل
فهو امام سور يمشي من الحضور
وخلفه هضاب شوامخ صعاب
ولم يحاول هربا من حيث كان كلبا
عيناه شعلتان يرنح كالسكران
متثاقلاً على مهل كالظل في سفح الجبل
وبينما الجمهور حيران مستطير
كالبحر ذي هياج في مكسر الامواج
طوراً وطوراً جامد
كالماء وهو راكد
حلقة مشتبكه في سكنة وحركه
النار في النواظر والهم في الخواطر
كالانجم الزهراء في ظلمة السماء

كل يقول ما العمل لصده وما الحيل
اذ انبرى شجاع ترهبه السباع
بدا من الجمهور بمظهر الامير
كان اسمه اديبا وان يحرّف ديبا
كقطعة الجلمود او هيكل الحديد
وسار نحو الذيب بكبر عجيب
يمشي ولا يبالي كالاسد الرئبال
يدق وهو ناء في عين كل راء
ويكبر الوجوم عليه والهموم
حتى اذا ما اقتربا منه عوى واضطربا
ونبه الاصداء فامتلأت عواء
ثم مشى ثم جرى مستقبلاً ومدبرا
والشمس في شحوب في ساعة الغروب
والناس في تخوف
من هول ذاك الموقف
يبدو لهم ظلان
في السفح مرسومان
حيناً على تلاق ثم على افتراق
ثم على اشتباك ثم على انفكاك
وسمعوا صوتاً اصم كضربة على وضم
ثم عواء مزعجا متابعاً مرجرجا
ثم عواء أضعفا
وابصروا الذئب اختفى
ثم اتى اديب ودمه مصبوب
حذاؤه مشقق وثوبه ممزق
وقال اجهزت ولا نخر على كلب الفلا
فهنأوه فرحا وامطروه مدحا
وهللو وكبروا لفوزه وافتخروا
ودرج الاطفال كانهم احجال
فجرروا الذئب الى
حيث الزحام استكملا
فعلت الاصوات وارتفعت رايات
وطيف في الاسواق
به على انتساق
ثم رمي في خندق ممزقاً من حنق
ولذ للكلاب لحم له كالصاب
فاجتمعت جموعا واكلت جميعا
وابتليت بالداء فعم كالوباء
فجزع السكان وانقطع الامان
واحتبس الآباء في البيت والابناء
وامتنع الذهاب في السوق والاياب
والاخذ والعطاء والبيع والشراء

فبثت الجنود ترقب وترود
فافنوا الكلابا وسكنوا الانبابا
. . . . . .
كانت من الشهود
في الموقف المشهود
يوم هلاك الذيب على يدي اديب
فتية عذراء جميلة غراء
كدرة او انصعا وملك او ابدعا
شعرها المسود يفوح منه الند
وعينها الزرقاء تحسدها السماء
وخدها الورديُّ سياجه هنديُّ
وقدها معتدل مثل القنا او اعدل
وودها مصفى ووعدها موفى
وقلبها عفيف وحبها شريف
كانت له خطيبه واسمها لبيبه
وكان موعد الزفا ف لهما قد أزفا
في اربعين خاليه من الليالي التاليه
يغدو اديب بعلها فهي له وهو لها
لما رأته اقدما مستبسلاً مقتحما
وراح يلقى السيدا منفرداً وحيدا
همت بان تتبعه رجاء ان تمنعه
او ان تميت السبعا
او يهلكا اذن معا
عدت ولم تبال
فاستوقفت في الحال
فلبثت تنتظر وقلبها منفطر
وفكرها مضطرب
ودمعها منسكب
تدعو الى الرحمن من قلبها الولهان
ان ينقذ الحبيبا وينصر الاديبا
حتى رأت مرجعه
وقد قضى مطمعه
مفتخراً مدلا معظماً معلى
ففرحت كثيرا حتى بكت سرورا
واقبلت عليه وضمدت جرحيه
فلزم البيت وفي يومين بعدها شفي
وبدئ الاعداد لفرح يجاد
فهيأوا الملبوسا وجهزوا العروسا
واشتروا الحريرا وكللوا السريرا
واجتمع الجيران والاهل والخلان
في منزل الخليل بمحفل جليل
يوم الثماني والثلا ثين لاهداء الحلى

جرياً على المعتاد في هذه البلاد
ففرقة النساء في الرقص والغوغاء
وفرقة الشبان
في الشرب والاغاني
وبينما هم في فرح ولا مظن للترح
اذ اشتكى اديب حرارة تذيب
وقام بارتعاش فوراً الى الفراش
فاستوصفوا دجالا
بطبه محتالا
فجس نبض الساعد
مثل الحكيم الراشد
وخط رسماً معجما
بالرسم يحكي الطلسما
وجاءه في غده ببدع لم تجده
وكرر العياده له بلا افاده
في الصبح والغداء والعصر والمساء
ينقد فوراً اجره ثم يولي ظهره
والضعف في ازدياد
والداء في اشتداد
وهو يقول لا مرض
وانما هذا عرض

حتى اذا الليل سجا
نام اديب مزعجا
وكان ليل العرس
ليل ابتهاج الانفس
في غده الزفاف
والعزف والطواف
فالناس في سرور للباسل المشهور
والخيل في استعداد والركب في تناد
وكل ذي مكان وكل ذات شان
في اهبة المسير بالموكب الكبير
يمهدون للغد
والموت ممدود اليد
. . . . . .
واذ مضى قليل تنبه العليل
كقطعة الحديد في اللهب الشديد
فهب يرغي مزبدا وقد تجافى المرقدا
واضطرمت عيناه واضطربت احشاه
وشنجت اعصابه وبرزت انيابه
فمزق الكساء وبعثر الاشياء
وكسر الزجاجا واطفأ السراجا
ثم مضى عريانا لا يهتدي مكانا

كالسبع المستوحش
يعوي بصوت ارعش
يسقط آنا ويقف يسكن ثم يرتجف
يستنبح الكلابا ويقرع الابوابا
ويقلق النياما ويفزع القياما
. . . . . .
وارقت لبيبه لا تعلم المصيبه
تفكر في استكمال مظاهر الجمال
وتقلق المرائي بكثرة الترائي
تأوي الى مرقدها مشغولة بغدها
حتى اذا ما ذكرت
امراً جديداً نفرت
تجرب الحذاء او تصلح الكساء
ثم تعود متعبه الى السرير موصبه
يروح امر ويجي في فكرها المختلج
تقول جذلى باكية خائفة وراجيه
ربي أألقاه غدا بجانبي فاسعدا
وكيف يأتي مضجعي
لا احد فيه معي
وما الذي يحلو له مني ان اقوله
اديب يا فخر الصبا كن لي بعلا وابا
يا ابسل الشجعان وافرس الفرسان
اميرهم في الحرب وخيرهم في الحب
اهواك مولاي ولا
اهوى سواك رجلا
اني غداً او اعدما
اسعد من تحت السما
. . . . . .
وكان بعض الناس في الليل والحراس
قد ارجعوا اديبا بدمه خضيبا
يتبعهم جمهور من الملا غفير
كل يقول ما به يسأل عن مصابه
فصاح شيخ في اللجب
ان به داء الكلب
وهو شديد الصرع
غير طويل النزع
فموته قريب وينتهي التعذيب
فقيدوه عجلا في غرفة منعزلا
وكان وهو ثائر اذا اتاه زائر
كشر عن اضراسه
وهم بافترأسه
وارسلوا من اخبرا لبيبة بما جرى

فاقبلت منكمشة مذعورة مرتعشه
ودخلت مجترئة غرفته مختبئة
وكان في سكون من ثورة الجنون
مستغرب القيود يعبث بالحديد
فابتسمت تكلفا وهي تموت كلفا
فهش مسروراً بها وبش حين قربها
كالاسد المريض
ملقى على الحضيض
تؤنسه غزاله لعوبة محتاله
سارحة بقربه مارحة في جنبه
وهو اليها ران
ترحان كالجذلان
ولبث الحبيب يصغي ولا يجيب
ثم شكا ثم زفر ثم بكا ثم نفر
وعضها في صدرها ورأسها وظهرها
فلم تحاول الهرب
من هول ذلك الغضب
وعرضت حياتها وفضلت مماتها
فظل في ايلامها
وهي على استسلامها
حتى تولى عنقها باليد يبغي خنقها
فاستصرخت من الرجع
وبعدها الصوت انقطع
فابصروها هامدة
بين يديه باردة
ثم صحا وادركا ما قد جناه فبكى
وصاح يا للناس لحسرتي وياسي
ويا لهذا العار من محرقي بالنار
يا قرة النواظر وبهجة الخواطر
لاتستطيري جزعا اني آت مسرعا
اليوم يوم عرسنا والملتقى في رمسنا
ثم هوى معفرا ومات موتاً منكرا
وشيع الزوجان في شكل مهزجان
ومنتهى السراء كمنتهى الضراء
لم يسعدا في العمر فسعدا في القبر
حب العلي اودى به
واستبسلت في حبه
كلاهما شهيد وموته حميد

خليل مطران